

الرسالة العالمية للحوزة العلمية

د. زهير الأعرجي



ما هي المعاني التي نستلهمها
من وجود الحوزة العلمية عند

الطائفة الإمامية؟

إن وجود الحوزة العلمية يحمل في جنباته ومضات شرعية وفلسفية واجتماعية تتعلق بأفكار الطائفة ومبنياتها ومبادئها. ولا شك أن كلمة «وجود» ترتبط بقضية فلسفية هي العلية. فالعلية في وجود الحوزة هي لتفقه طائفة من الأفراد لمعالجة الجهل بأحكام الدين عند عامة الناس.

وعلاقة التفقه بمعالجة الجهل هي علاقة العلة بالمعلول. ويؤيده قوله تبارك وتعالى في كتابه المجيد: «...فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين...»^(١).

فمعرفة معاني الدين من قبل الأمة تحتاج إلى عمليات إحالة إلى الخبراء المتفهمين في أحكام الشريعة ومبادئها الأخلاقية. فالحوزة العلمية يمكن أن تمثل جسراً معرفياً بين الناس على اختلاف مستويات إدراكهم العقلي وبين المعاني الحقيقية للدين بما فيه من أحكام وعقائد وأخلاق.

وفي ضوء هذا الفهم لا بد أن يكون للحوزة العلمية رسالة فكرية وشرعية، توجه للإنسانية جمعاء. فما هي تلك الرسالة يا ترى؟

قبل الجواب عن هذا السؤال لا بد من مقدمة مختصرة عن أصالة التعليم في الحوزة العلمية، ثم نطرح الرسالة العالمية للحوزة العلمية عبر أربعة محاور مختصرة.

مقدمة

لا شك أن العلم الديني ينتقل بشكل طبيعي من جيل لآخر عبر المعاهد العلمية التي ينشئها الجيل السابق للجيل اللاحق. فالإنسان لا يستطيع الوصول إلى مرحلة النضج العلمي ما لم تتجمع لديه كمية من المعلومات العقائدية والحكومية حول العالم الذي يعيش فيه والعلاقات التي تتحكم في وضعه، وموقفه تجاه الأحداث، ومقدار المهارة العملية التي يجب أن يتمتع بها. ففي عصر النص قامت الرسالة الإلهية ببناء الأساس لهيكل الأحكام والعقائد الإسلامية.

□ إن وجود الحوزة العلمية يحمل في جنباته ومضات شرعية وفلسفية واجتماعية تتعلق بأفكار الطائفة ومتبنياتها ومبادئها.

□ فالحوزة العلمية تمثل جسراً معرفياً بين الناس على اختلاف مستويات إدراكهم العقلي وبين المعاني الحقيقية للدين بما فيه من أحكام وعقائد وأخلاق.

ولكن ذلك البناء التحتي الأساسي كان يحتاج إلى بناء علوي لتفسير الأحكام والعقائد والأخلاق، فبدأت المؤسسة العلمية التي أطلق عليها لقب الحوزة العلمية القيام بوظيفتها الشرعية والثقافية.

وليس هناك تاريخ محدد لقيام الحوزة، ولكن يعتقد أن القديمين: ابن أبي عقيل العماني (المعاصر للشيخ الكليني في مطلع القرن الرابع الهجري ولا نعرف تاريخ وفاته)، وابن الجنيد (ت ٣٨١هـ) والشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، والسيد المرتضى (ت ٤٣٦هـ) ثم الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، كانوا قد وضعوا البذرة الأولى لتأسيس الحوزة العلمية الإمامية. وانفرد الشيخ الطوسي قدس سره بتأسيس الحوزة النجفية المشرفة بمرقد أمير المؤمنين عليه السلام.

وكان من أهم مهمات الحوزة العلمية هو الحفاظ على روح الطائفة وجسدها إلى مستقبل بعيد غير منظور، عبر صيانة مذهب أهل بيت النبوة عليهم السلام والتوسع في أبحاثه العقلية والعقلية بما يتناسب والتكليف الشرعي الذي جاءت به الشريعة للمكلفين. وكانت البداية في ذلك، أن الناس - وهم مكلفون - كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله عن أحكام دينهم، فكان صلى الله عليه وآله يجيبهم بما أوحى الله سبحانه له أو كان يحيلهم أحياناً إلى وقت نزول الوحي.

وعند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بدأ دور أئمة الهدى عليهم السلام باعتبارهم أحد الثقلين إلى جانب القرآن الكريم - بتفسير الشريعة وإحالة التساؤلات إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله باعتباره المرجع في كليات الرسالة الإلهية .

وعند انتهاء النص وبدء الغيبة الكبرى أصبح الفقهاء، المرجع الوحيد لإيصال كليات الرسالة الدينية إلى الناس، كما يفهم من التوقيع الشريف: «أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليكم...» (٢).

وهنا بدأ البحث في توثيق الروايات، وتثبيت أسماء الرواة من الرجال، ومحاولة فهم معاريض الأخبار، وتفسير القرآن الكريم بما فيه من محكم ومتشابه وظاهر وباطن، ووضع القواعد الكلية التي تحكم المصاديق المتشابهة في الأحكام الفقهية، ووضع الأصول العملية في البراءة والاحتياط والتخيير والاستصحاب عندما يُفتقد الدليل . وكانت تلك الأهداف قد وضعت مسؤولية عظيمة على عاتق الفقهاء . فلم يكن التعليم أو التدريس فحسب الهاجس الرئيسي للفقهاء، بل كان من وظيفة الفقيه المجتهد أيضاً مواصلة البحث عن كل ما يشخص التكليف الشرعي لدى المكلفين . ولذلك بحثوا حجية خبر الواحد، وحجية الألفاظ، وحجية

□ للحوزة العلمية رسالة فكرية وشرعية، توجّه للإنسانية جمعاء.

□ وكان من أهم مهمات الحوزة العلمية هو الحفاظ على روح الطائفة وجسدها إلى مستقبل بعيد غير منظور، عبر صيانة مذهب أهل بيت النبوة عليهم السلام.

الشرعية؟

لاشك أن لدى فقهاء الحوزة العلمية ثلاث قابليات متميزة انفردوا بها عن أقرانهم من المذاهب أو الأديان الأخرى. الأولى: القابلية على استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها المعروفة. الثانية: القابلية على استثمار الدليل العقلي في عالم التحليل استثماراً موقفاً إلى أبعد حدود التوفيق. الثالثة: القابلية على ترجمة النظرية الفقهية إلى واقع قانوني عملي ملزم لجميع الأفراد، خصوصاً المكلفين منهم.

وتلك القابليات الهائلة استمدت من مبادئ الحوزة العلمية الهادفة إلى بناء الفرد والجماعة بناءً إيمانياً شرعياً رصيناً. ومن ذلك البناء تستمد الأصول في بناء الدولة الشرعية التي تنسجم وظيفتها مع وظيفة الدين في تنظيم شؤون الإنسان وتعبيده للخالق عز وجل.

إن للحوزة العلمية رسالة عالمية للإنسانية جمعاء، ولذلك فهي تستثمر التعليم كوسيلة من وسائل تبليغ تلك الرسالة. ولكن لتلك المؤسسة العلمية فلسفتها في المجتمع. فهي مع كونها مؤسسة تعليمية لبث العلم الديني بين الناس، إلا أنها جامعة للتقنين الشرعي والأخلاقي والمعرفي للدولة والمجتمع الإنساني. ولذلك فإن رسالتها تعبر عن رسالة القانون والعدالة والمعرفة والأخلاق والفكر، للشرية بكافة أفرادها ومصاديقها.

الإجماع.

وكان البحث عن الحجية هو محور أبحاث الشريعة في أصول الفقه، بينما كان البحث عن التوحيد والنبوة والإمامة محور أبحاث الشريعة في أصول الدين.

وكانت الرغبة بين فقهاء الحوزة العلمية على مدى الألف سنة الماضية، هي إشباع طموح - يرقى إلى مستوى التكليف الشرعي - في تطبيق أحكام الدين على الفرد والمجتمع. فلم تكن من طبيعة الدين أن يهتم بالفرد ويهمل الجماعة. وكان هذا واضحاً عند الفقهاء. ولكن الظروف السياسية والاجتماعية القاسية التي مرت بها الطائفة الشيعية من اضطهاد وظلم لا يُطاق عبر مئات السنين رسّخ فكرة «الفردية» في الفقه.

فأصبح الفقه الإمامي يهتم بالفرد أيما اهتمام. وأصبحت عبادات الفرد المقياس الذي يُقاس به كمال الشريعة، مع أن الشريعة اهتمت بالفرد والجماعة، واهتمت بالعبادة وتنظيم شؤون الإنسان أيضاً.

ولكن ما إن تنفّس فقهاء الإمامية الصعداء بانتصار الثورة الإسلامية المباركة في إيران سنة (١٩٧٩م) بقيادة الفقيه العظيم الإمام الخميني قدس سره، حتى عاد السؤال يطرح نفسه من جديد:

كيف يستطيع الفقهاء إدارة الجماعة أو الدولة إدارة مدنية دينية في ضوء التكاليف

□ إن الظروف السياسية والاجتماعية
القاسية التي مرت بها الطائفة الشيعية من
اضطهاد وظلم لا يُطاق عبر مئات السنين
رسّخ فكرة «الفردية» في الفقه.

الرسالة المعرفية. الثالث: الرسالة
الاجتماعية. الرابع: الرسالة القانونية
الشرعية.

المحور الأول: الرسالة الأخلاقية

إن الدين والأخلاق متلازمان في الدوافع
والمواقف والتطبيقات العملية. فإذا كان الفرد
متديناً، فمعنى ذلك أن دوافعه ومواقفه
وممارساته العملية أخلاقية المنشأ.
والأخلاق النظرية والعملية تدعو الفرد
للتمسك بالدين والالتزام بتعليماته. ولكن
الفرق بين الدين والأخلاق هو أن الدين كيان
مستقل مرسل من قبل السماء للبشر، بينما
تعتمد الأخلاق - باعتبارها كياناً تابعاً - على
الدين.

والتمييز بين الاستقلالية والتبعية هنا مهم

وروح الرسالة الحوزوية يعبر عن هدف
دنيوي يطمح لتحقيق سعادة المكلف في
تأدية التكاليف الشرعية، وهدف أخروي
يطمح لتحقيق سعادة المؤمن في الحياة
الآخرة بعد تأدية تكاليفه في الدنيا. وهذا هو
المقصود من سعادة الدارين في الروايات
الدينية.

إن وضوح هذه المقدمة المختصرة في
أصالة التعليم الديني في الحوزة العلمية، يفتح
لنا الباب لرؤية أهداف الحوزة العلمية الإمامية
في المجتمع المعاصر. فمن أهم أهداف
الحوزة هو خلق المجتمع الديني الفاضل
القائم على أسس العدالة والتقوى والعلم
والمعرفة. ومن أجل إدراك ذلك، لا بد من
تقسيم رسالة الحوزة العلمية الإمامية إلى أربعة
محاوَر. الأول: الرسالة الأخلاقية. الثاني:

للمغاية. لأن الاستقلالية في الدين السماوي تعني استقلالية المصدر وكماله. وبمعنى آخر أن الدين ليس بمرتبة الأخلاق، بل هو أعلى رتبة من الأخلاق. ولذلك ورد في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٣).

فالمتدين يكون خلقاً ولا عكس، لأن رتبة الدين أعلى من رتبة الأخلاق، ولذلك بُعث النبي صلى الله عليه وآله لإتمام مكارم الأخلاق. ولولا علو رتبة الدين لما بُعث صلى الله عليه وآله.

فالأصل في الموضوع أن الذي لا يؤمن بالدين السماوي ولا يطبق تعليماته لا يصبح سلوكه سلوكاً أخلاقياً، حتى لو ادعى ذلك. وإن الذي يؤمن بالدين السماوي ويستلهم من معارفه السامية طريقه في الحياة، يصبح سلوكه دينياً وأخلاقياً في الوقت نفسه.

ومن هذا المنطلق نعتقد أن للحوزة العلمية رسالة أخلاقية تعرضها على العالم. ولا شك أن تلك الرسالة الأخلاقية مستمدة من أخلاقية الدين ذاته. وتلك الرسالة تستند على أربعة عناصر:

١- الاعتقاد بكرامة الإنسان، ويؤيده قوله تعالى: «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر...»^(٤). وهذا الاعتقاد نابغ من كون الإنسان أكرم مخلوقات الباري عز وجل بقوة العقل وقوة الاختيار. فصلاحيية الإنسان

□ من مبادئ الحوزة العلمية بناء الفرد والجماعة بناءً إيمانياً شرعياً رصيناً. ومن ذلك البناء تُستمد الأصول في بناء الدولة الشرعية التي تنسجم وظيفتها مع وظيفة الدين.

□ إن للحوزة العلمية رسالة عالمية للإنسانية جمعاء، ولذلك فهي تستثمر التعليم كوسيلة من وسائل تبليغ تلك الرسالة.

لاحتلال موقعه المتميز في النظام الكوني
يعبر عن صلاحيته لطاعة مولاه الخالق
العظيم اختياراً. وتلك الطاعة الأخلاقية
تؤهله كي يكون أكرم المخلوقات في الكون.
٢- الاعتقاد بأن أعلى مراحل الخير هو أن
يفعل الخير بدافع كونه خيراً لا بدافع الحصول
على الأجر لاحقاً، ويؤيده قول الإمام أمير
المؤمنين عليه السلام مخاطباً ربه سبحانه وتعالى:
«عبدتك لاطمئناً في جنتك ولا خوفاً من نارك،
وانما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»^(٥). وهذا
القول يدل الرتبة الشرعية للخير من رتبة
المثالية إلى رتبة الواقعية.

فالإنسان، لو تجرد من عالمه المادي كما
يحصل للمعصوم عليه السلام، لاستطاع الوصول
إلى تلك الرتبة المتقدمة من رتب الخير.
ولكن فعل الخير حتى لو كان مرجوياً للأجر
الإلهي - كما هو ديدن عامة الناس - فإنه
يكون أخلاقياً أيضاً. لأن فيض الخالق عز
وجل لا يمتنع عن الوصول إلى عباده الذين
يفضلون تلك الرتبة الأخيرة.

٣- الاعتقاد بأن الحلال والحرام، والأمر
والنهي، والاستحباب والكراهية؛ لها مناشئ
أخلاقية بالإضافة إلى مناشئها الشرعية
الالزامية.

ففهم طبيعة الملاكات في الأحكام
الشرعية قد يوصلنا إلى فهم أفضل لطبيعة
المصلحة والمفسدة. وتطبيق تلك الأحكام

□ وروح الرسالة الحوزوية يعبر
عن هدف دنيوي يطمح لتحقيق
سعادة المكلف في تأدية التكاليف
الشرعية، وهدف أخروي يطمح
لتحقيق سعادة المؤمن في الحياة
الآخرة.

□ من أهم أهداف الحوزة هو خلق
المجتمع الديني الفاضل القائم على
أسس العدالة والتقوى والعلم
والمعرفة.

يتعامل مع الدوافع الأخلاقية نحو حب الخير ونبذ الشر، فإنه لاشك يتعامل مع وسائل تنفيذها على نطاق المجتمع. وهكذا تصبح الأخلاق التي تدعو لها الحوزة العلمية أخلاقاً عمليةً يمكن تطبيقها لا أخلاقاً مثاليةً تدفن في بطون الكتب والمتون الفلسفية.

ومن أجل أن تصل رسالتنا الأخلاقية إلى العالم لا بد من طرح نظريات دينية: في الأخلاق النظرية والعملية، وفي الدوافع الذاتية، وفي السلوك الأخلاقي، وفي العلاقة الصميمية بين الأخلاق والدين.

المحور الثاني: الرسالة المعرفية

وهذه الرسالة تتضمن دعوةً لصياغة نظرية معرفية جديدة على ضوء القطع واليقين. خصوصاً في العلاقة بين الإيمان والمعرفة، وفي تركيبة الدليل العقلي، وفي نظرية المعرفة.

العلاقة بين الإيمان والمعرفة

لاشك أن قضية المعرفة تعدُّ من أهم القضايا الفلسفية التي بحثها الفلاسفة على مر العصور. فالمعرفة الحققة في الدين تُعدُّ الطبيعة النهائية للحقيقة. ولكن ما هي العلاقة بين المعرفة والإيمان في النظرية الدينية؟ أو بتعبير آخر ما هي العلاقة بين العقل والقلب؟

الشرعية لا يتعارض مع الوصول إلى المثاليات الأخلاقية. فكلما وصل الإنسان إلى درجة أعلى في الطاعة الشرعية، تسامى إلى درجة أرقى من درجات الأخلاق المثالية. ولاشك أن الحلال يولّد دائماً جمالاً، ومعرفة، وسعادة؛ بينما يولّد الحرام قبحاً، وجهلاً، وتعاسة. وبكلمة فإن الحلال ينتج خيراً، والحرام ينتج شراً.

وبذلك تكون الواجبات الدينية واجبات أخلاقية يسعدُ الإنسان بأدائها. وتكون المحرمات الدينية محرمات أخلاقية يسعدُ الإنسان بتركها أيضاً.

٤ - الاعتقاد بأن القدرة على اختيار الخير دون الشر أمر ممكن، إذا استطاع الإنسان تنقية دوافعه الذاتية وتغييرها إلى دوافع دينية بحيث يُؤثر الآخريين على نفسه حتى لو كان معدماً. كما ورد في قوله تعالى «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة...»^(٦). فالإيثار يعبر عن قدرة الإنسان على تفضيل الآخريين على نفسه تفضيلاً أخلاقياً. مع أن الإيثار قد يولّد مشقة للإنسان، ولكن الدين يعلمه اختيار طريق الخير وطاعة أحكام الدين في كل الأحوال.

وهذه الرسالة الأخلاقية تستطيع الحوزة العلمية الإمامية أن تنقلها إلى العالم الواسع، عبر المفكرين والفقهاء والفضلاء الذين يعملون في إطارها. وإذا كان الدين

□ الحوزة العلمية رسالة أخلاقية تعرضها على العالم. ولاشك أن تلك الرسالة الأخلاقية مستمدة من أخلاقية الدين ذاته.

اليقين قائماً في المعرفة، فإنه يوصله إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى. وتلك العلاقة الراسخة بين الإيمان بالغيب والمعرفة العقلية في النظرية الدينية تسلط الضوء على العلاقة بين العقل والقلب. فيدخل العلم بالغيب، والوحي، والرؤيا الصادقة، وخشوع القلب، والدليل الشرعي، والدليل العقلي في دائرة تلك العلاقة الراسخة بين الإيمان بالغيب والمعرفة العقلية. وتخرج من دائرتنا كل العناصر الأخرى التي تولد إيماناً في النظريات غير الدينية - كالأحلام، والهلوسة، والخيال.

والعلاقة بين العقل والقلب في النظرية الدينية تفصح عن، أن العقل يبحث عن الحجة والدليل. فإذا ثبتت الحجة آمن بها القلب. وقد يتحد القلب والعقل في المؤمن الخاشع؛ فقلبه المرهف البصير قد وثق

إن المعرفة تعني الاعتقاد بتراكم المعلومات حول وجود الشيء. فعندما تقول: أعرف ذلك المفهوم، فإنك تقصد أن لديك تبريراً للاعتقاد بأنك تعرف ذلك المفهوم من خلال المعلومات المتراكمة في الذهن. أي إن المعرفة قضية ذهنية حقيقية لها مسوغ مستمد من الخارج. أما الإيمان فهو يعني الحالة الشعورية الذاتية للقلب والتي لها علاقة مباشرة بسلوك المؤمن. فالمؤمن برسالة الدين يعيش حالة ذاتية تدفعه لسلوك معين كالإيمان بالله سبحانه وبكتبه السماوية وبرسله وبحججه.

وبطبيعة الحال، فإن المساحة التي يشترك فيها الإيمان مع المعرفة هي مساحة القطع واليقين. وفي تلك المساحة تمتد الجسور بين الإيمان والمعرفة. فإذا كان اليقين قائماً في الإيمان، كان المؤمن عارفاً. وإذا كان

التحليل الذهني، والنظر للعالم الطبيعي الذي يحيطنا من كل جانب.

ولاشك أن تلاحم الدليل الشرعي مع الدليل العقلي يؤدي إلى تأسيس نظام اجتماعي منسجم. فكما يشعر الإنسان بالسعادة عندما تنسجم تطورات الروح مع آمال الجسد، فإن الإنسان يشعر بالسعادة أيضاً عندما يتناغم الدليل العقلي مع الدليل الشرعي على الصعيد الاجتماعي خصوصاً على الصعيد الإدارة الاجتماعية. فمثلاً يحث الإسلام الأفراد على عدم أكل أموال الآخرين بالباطل عبر قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم...﴾^(٩)؛ وهذا الدليل الشرعي يحرم المعاملات التجارية التي لا تهتدي بهدي الشريعة.

أما الدليل العقلي فإنه ينظم السوق التجاري من حيث عدالة الأسعار وتقليل أظافر نظرية العرض والطلب بحيث لا يستغل الفقير لمنفعة الغني؛ وهذا الدليل العقلي يفتح الطريق لاكتشاف الدليل الشرعي، وهو أصالة العدالة في التجارة التي تؤمن بحرمة أكل أموال الناس بالباطل.

وبكلمة، فإن الدليل العقلي لا يتطابق مع المشاعر العاطفية أو الوجدانية للإنسان، بل يتطابق مع الدليل والحجة. إلا اللهم إذا كان يقصد بالوجدان، العقل ذاته. فعلى سبيل

بالدليل القلبي لمعرفة الغيب. وقد أدان القرآن الكريم قوماً لا تفقه قلوبهم معارف الشريعة فقال في وصفهم: ﴿... لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام...﴾^(٧).

وفي آية أخرى: ﴿فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمي الظلمات التي في الصدور﴾^(٨).

وفي ضوء هذا الفهم عن الغيب والعقل، نستمد تصوّراً عن دور الحوزة العلمية في ردف العالم بنظرية جديدة عن الربط بين الإيمان والمعرفة. فما لم يستند الربط على قطع ويقين بكليهما، فإن الإيمان والمعرفة لا يرتقيان إلى مستوى النظرية الدينية. ومعنى اليقين هو أن لا يُراود الإنسان شكٌ بصحة معتقده الذي يؤمن به، وصحة المعلومات المتراكمة في ذهنه حول المواضيع الخارجية التي لها علاقة بذلك الإيمان. ورسالة الحوزة - إذا استطعنا صياغتها على شكل نظريات رصينة - فإنها ستُخرج كل الخرافات التي تسللت إلى بعض الأفكار الدينية الموجودة في العالم.

الدليل العقلي

إن إمضاء الحوزة العلمية للدليل العقلي يعني انفتاحها على حركة الأفكار العالمية التي ينتجها العقل البشري. فالدليل العقلي يعكس القوة التي يمتلكها عقل الإنسان في

المثال: يدعو العقل إلى تطبيق القصاص بالجناة، ولكن العاطفة لا تدعو إلى ذلك لأنني مرتبط بالجاني برابطة القرابة مثلاً. فالدليل العقلي هنا، يتطابق مع الدليل الشرعي، ولكنه يتناقض مع الدليل العاطفي. ولاشك أن الدليل العقلي نتاج ثلاثة عناصر متضافرة.

الأول: التجربة الإنسانية المختمرة في ذهن الإنسان والمكتسبة من الخارج.

الثاني: التركيب الذهني الذاتي الذي يخلقه الإنسان لنفسه مهما كانت درجة ثقافته.

الثالث: القدرة الإلهامية التي يزرعها المولى عز وجل في ذهن الإنسان المبدع الملهم.

وعندما نقول بانسجام الدليل الشرعي مع الدليل العقلي، فإننا نقصد بأن الحكم الشرعي الخاص بتجربة إنسانية معينة كالتجارة مثلاً، نجد له تقبلاً وانفتاحاً في ذهن الإنسان. ذلك الذهن الذي يلحظ تركيبة السوق التجارية من الناحية الشرعية، ويفكر بضوابط سماوية تضبط مقدار المصلحة والمفسدة التي يجلبها التعامل التجاري للإنسان.

نظرية المعرفة

إن ارتباط الدليل الشرعي بالدليل العقلي ينبغي أن يؤسس تركيبة جديدة لنظرية المعرفة. باعتبار أن ذلك الارتباط يعرض

□ الأخلاق التي تدعو لها الحوزة العلمية أخلاق عملية يمكن تطبيقها لا أخلاقاً مثالية تدفن في بطون الكتب والمتون الفلسفية.

□ ومن أجل أن تصل رسالتنا الأخلاقية إلى العالم لابد من طرح نظريات دينية: في الأخلاق النظرية والعملية، وفي الدوافع الذاتية.

□ والعلاقة بين العقل والقلب في النظرية الدينية تفصح عن، أن العقل يبحث عن الحجة والدليل. فإذا ثبتت الحجة آمن بها القلب.

□ للحوزة العلمية دور في رفد العالم بنظرية جديدة عن الربط بين الإيمان والمعرفة.

□ ورسالة الحوزة إذا استطعنا صياغتها على شكل نظريات رصينة فإنها ستخرج كل الخرافات التي تسلت إلى بعض الأفكار الدينية الموجودة في العالم.

فكرة ربط الأفكار الدينية السماوية والتكاليف الشرعية بالواقع الخارجي والحقيقة الخارجية. ونظرية جديدة في المعرفة لا بد وأن تؤسس لعالم يختلف عن عالمنا المادي الذي نعيش فيه صراعاً لانهائياً. والعالم الجديد الذي نتوقعه هو عالم العدالة الواقعية، وعالم الرحمة والمحبة، وعالم السلام والأخوة. وعالم بتلك المواصفات يعبر عن الحقيقة الإلهية التي ينبغي أن تسود هذا الكوكب المسكون بكائنات هي بأمس الحاجة إلى هداية سماوية.

إن تلك النظرية الجديدة تضع الخالق عز وجل في محور تفكيرها. فهو سبحانه وتعالى خلق المعرفة، وخلق الإنسان وأوهبه الإدراك والفهم، وجعل له الشريعة وسيلة من وسائل تنظيم العيش في الحياة الدنيوية ووسيلة من أجل العبادة. وما نظرية المعرفة الدينية إلا نظرية لربط الأفكار المتشابكة بين الدليلين الشرعي والعقلي.

إن نظرية المعرفة لا تهتم بكيفية اكتساب المعرفة عند الإنسان، بل إن اهتمامها ينصب على مدى صلاحية تلك المعرفة والمبرر الذي يبرر القول بأن تلك المعرفة تمثل حصة كاملة من الحقيقة. وتعبير آخر، فإن نظرية المعرفة تهتم بدور القطع أو الشك أو الظن في إثبات صلاحية المعرفة أو عدم صلاحيتها.

إن إمضاء الحوزة العلمية للدليل العقلي يعني انفتاحها على حركة الأفكار العالمية التي ينتجها العقل البشري.

إن رسالة الحوزة العلمية إلى العالم، فيما يتعلق بالقضايا المعرفية، رسالة على جانب عظيم من الأهمية، لأن الحوزة الدينية الإمامية هي المؤسسة العلمية الوحيدة التي تستثمر الدليل العقلي من أجل اكتشاف الدليل الشرعي. فقد طورت هذه الحوزة العلوم العقلية المعرفية إلى درجة كبيرة من العمق والتحليل.

فإذا كان هناك شك في حقل من حقول المعرفة الدينية، فإن الإيمان بجوهر تلك المعرفة لا يتحقق ما لم يزل الشك الذي كان يحوم حولها زوالاً تاماً. وعندها فإن إمكانية مطابقة تلك المعرفة للحقيقة الخارجية تكون تامة، ويكون المبرر للإيمان بتلك المعرفة تاماً أيضاً.

وهنا، إذا كان محور نظرية المعرفة هو الدليل الشرعي، فإننا يجب أن نقطع كل الشكوك التي تدور حول ذلك الدليل من ضعف في السند، أو توهم في المعنى، أو عدم استناد إلى قاعدة كلية. وعندها نعرض الدليل الشرعي باعتباره مطابقاً للحقيقة الشرعية. وهنا يلعب القطع دوراً كبيراً في إثبات صلاحية ذلك الدليل. فإننا لانستطيع أن نزعم صلاحية تلك المعرفة ما لم نقطع بكمال مصدرها ومحتواها. فيكون المبرر للإيمان بالدليل الشرعي مبرراً تاماً. وهذا التشابك بين الدليلين الشرعي والعقلي، ناتج من عدم فسح المجال للشك، إلى الدخول في النظرية الدينية للمعرفة.

إن رسالة الحوزة العلمية إلى العالم، فيما يتعلق بالقضايا المعرفية، رسالة على جانب عظيم من الأهمية، لأن الحوزة الدينية الإمامية هي المؤسسة العلمية الوحيدة التي تستثمر الدليل العقلي من أجل اكتشاف الدليل الشرعي. فقد طورت هذه الحوزة العلوم

جاء اليوم الذي ينبغي لفقهاء الإمامية أن يتحركوا فيه لطرح نظرياتهم الدينية في أصول المعرفة الإنسانية، وفي أصول الإيمان الغيبي المرتبط بالمعرفة العقلية.

لاشك أن العالم المعاصر، إذا عاش تحت ظل نظريات معرفية ينتجها الفقهاء والمفكرون المسلمون، فإنه سيكون أكثر انسجاماً وتماسكاً من عالم يعيش تحت ظل نظريات علمانية لا تكثرث لدور الدين في الوجود.

العقلية المعرفية إلى درجة كبيرة من العمق والتحليل. ولكنها بحاجة إلى عرض نظريات شرعية إلى العالم في المعرفة، والعقل، والرابط بين الإيمان والمعرفة.

فقد احتكر الفلاسفة النظريات المعرفية والعقلية لفترة طويلة. وقد جاء اليوم الذي ينبغي لفقهاء الإمامية أن يتحركوا فيه لطرح نظرياتهم الدينية في أصول المعرفة الإنسانية، وفي أصول الإيمان الغيبي المرتبط بالمعرفة العقلية. ولاشك أن العالم المعاصر، إذا عاش تحت ظل نظريات معرفية ينتجها الفقهاء والمفكرون المسلمون، فإنه سيكون أكثر انسجاماً وتماسكاً من عالم يعيش تحت ظل نظريات علمانية لا تكثرث لدور الدين في الوجود.

المحور الثالث: الرسالة الاجتماعية

إن الرسالة الاجتماعية للحويزة العلمية واضحة المعالم، فهي تعني قدرة الإسلام على معالجة المشاكل الاجتماعية التي يخلقها التغير الاجتماعي. فالفقيه الكفوء المجتهد قادر على معالجة المشاكل الحقوقية، والأخلاقية، والتعبدية، والفكرية عبر تسلّمه مقاليد الولاية الشرعية للأمة.

ولكن قد يتساءل متسائل: كيف يحق لمكّلف بسط سلطته على مكّلف آخر بعنوان الإدارة الاجتماعية؟

والعيش والسكن والانتقال. وهناك حقوق متغيرة مثل حقوق التعليم والتطبيب والتوكيل السياسي. وفي كل الأحوال يصون النظام السياسي الإسلامي المتمثل بالدولة الإسلامية وولاية الفقيه حقوق الأفراد ويعين لهم واجباتهم المدنية والشرعية.

والرسالة التي توجهها الحوزة العلمية للعالم المعاصر، هي أن الدين يحفظ مصالح الأفراد الاجتماعية والدينية. ونقصد بالمصالح: الحاجات الأساسية للناس، لا الرغبات المحضة. فمصلحة الإنسان في التملك، أو في البيع والشراء، أو في العمل تعدُّ حقوقاً يصونها الدين. لأنها ليست رغبات شخصية بل هي حاجات أساسية لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونها.

ولاشك أن الحقوق الدينية والمدنية مرتبطة بالواجبات. ولكن الواجب لا يؤدي بشكله الشرعي الصحيح ما لم يتحقق على أرض الواقع أمران. الأول: وجود الوازع الذاتي عند الإنسان حيث يدفعه لأداء الواجب. والثاني: القانون الخارجي الذي يفرض على المكلف عقوبة إذا تماهل في أداء ذلك الواجب.

ولكن إذا مات الوازع الذاتي فإن العقوبة تكون الخط الفاصل بين الحقوق والواجبات الاجتماعية والجزائية. وإذا كان الدين يمنح حقوقاً أخلاقية للفقراء كحق استلام

يجيب الدين عن ذلك بالقول بأن السلطة مسؤولية أخلاقية يُكَلَّفُ بها المعصوم عليه السلام أو من يمثله من الفقهاء العدول من أجل تنظيم حقوق الناس وحفظ مصالحهم الشخصية والدينية والاجتماعية. وللتكليف الشرعي درجات مختلفة عند المكلفين، أعلاها درجة الولاية الشرعية للفقيه زمن الغيبة والتي تتم من خلالها الإدارة الاجتماعية للأمة.

وأخذ الحق المشروع لا يعني أن الإنسان يجب أن يتسلح بكفاءة قانونية من أجل استلام ذلك الحق. بل إن الحقوق ممنوحة للأفراد في التشريع. والمعصوم عليه السلام أو الفقيه الولي ينظّم تلك الحقوق ويضعها موضع التنفيذ. فحق الفرد في البيع والشراء، والتملك، وإجراء العقود التجارية والشخصية والإيقاعات، والعمل، والكسب التجاري، والتعلم، والعلاج، والضمان الاجتماعي، والتعبد، وإقامة الشعائر الدينية؛ كلها حقوق ممنوحة من قبل الشارع عز وجل للمكلفين على اختلاف مستوياتهم الفكرية والعقائدية والاجتماعية.

والإسلام يحدد كليات تلك الحقوق وينظّمها، بينما يتناول الفقيه الولي جزئيات تلك الحقوق بلحاظ التغيير الاجتماعي والمعاصرة التي يعيشها. فهناك حقوق ثابتة في كل زمان ومكان، وهي حقوق العمل

□ وللتكليف الشرعي درجات مختلفة عند
المكلفين، أعلاها درجة الولاية الشرعية
للفقيه زمن الغيبة والتي تتم من خلالها
الإدارة الاجتماعية للأمة.

العلمية هي أنها رسالة واقعية، بمعنى أن التصميم الفكري للنظرية الاجتماعية الفقهية له وجود أو كيان حقيقي واقعي. أي إن الخالق عز وجل خلق الإنسان وهو أعلم بحاجاته الروحية والاجتماعية، ولذلك كانت المفردات الشرعية قضايا حقيقية مطابقة للواقع الخارجي.

فلولا العلم بوجود الانحراف الاجتماعي، لما وجدت الأحكام الشرعية المتعلقة بالعقوبات. ولولا العلم بطموحات بعض لحيازة الثروة الاجتماعية بشكل غير مقبول، لما وجدت الأحكام الشرعية التي تنظم العدالة الاجتماعية. ولولا العلم بوجود الخصومات بين الأفراد في المجتمع الإنساني في كل زمان، لما وجدت الأحكام الخاصة بالقضاء.

الصدقات والمساعدات الخيرية من الأثرياء، فإنه يفرض واجبات أخلاقية مشابهة فيما إذا تبدل وضع الفرد المالي وانتقل من الفقر إلى الثراء؛ ومصاديق ذلك دفع الصدقات المستحبة والإحسان إلى الفقراء والمساكين. وتلك حقوق وواجبات إضافية غير الحقوق والواجبات الأساسية، كدفع الزكاة والخمس.

وبالإجمال، فإننا إذا قدرنا على عرض منهج علمي شرعي لطريقة الاستدلال الاجتماعي، فإننا نستطيع صياغة نظريات فقهية لمعالجة المشاكل الاجتماعية التي تعاني منها الإنسانية المعاصرة. وكلما نكتشف نظرية اجتماعية جديدة في ضوء المنهج الشرعي، نكون قد اقتربنا من الوصول إلى شاطئ السعادة الإنسانية.

إن ما يميز الرسالة الاجتماعية للحوزة

وبكلمة، فإن الأحكام الشرعية التي نستفيد منها في صياغة النظرية الاجتماعية ليست أطروحات فلسفية مجردة عن معانيها التطبيقية، بل هي علاجات حقيقية للمشاكل الاجتماعية التي نجدتها في كل عصر. وهذه هي الرسالة الاجتماعية العالمية للحوزة العلمية.

المحور الرابع: الرسالة القانونية

إن النظام القانوني في المجتمع الإنساني يتضمن أحكاماً بالنهاي أو الوجوب. وتلك القوانين تستحق الإطاعة والإذعان، لأن فيها انتظام الأمور وسعادة الإنسان. ولاشك أن قطب الرحي في الحوزة العلمية هو الأحكام الشرعية التي لها القابلية على النزول إلى المجتمع على شكل قوانين إلزامية على المستوى العبادي، وعلى شكل قوانين إلزامية على المستوى القضائي، والسياسي، والتجاري، والاجتماعي ونحوها.

ولاشك أن الشريعة - باعتبارها تشريعاً صادراً عن الله سبحانه وتعالى - لها القابلية على أن تترجم إلى قوانين عملية قابلة للتطبيق في المجتمع. ولكن تلك القابلية لا يمكن استثمارها ما لم ينظر المجتهد المسائل والقضايا الشرعية إلى نظريات فقهية يستنبطها من أصول الشريعة. فالحد في السرقة مثلاً هو القطع. ولكن هناك شروط

□ **يـ صون النظام السياسي الإسلامي المتمثل بالدولة الإسلامية وولاية الفقيه حقوق الأفراد ويعين لهم واجباتهم المدنية والشرعية.**

□ **والرسالة التي توجهها الحوزة العلمية للعالم المعاصر، هي أن الدين يحفظ مصالح الأفراد الاجتماعية والدينية.**

□ ما يميز الرسالة الاجتماعية للحوزة العلمية هي أنها رسالة واقعية، بمعنى أن التصميم الفكري للنظرية الاجتماعية الفقهية له وجود أو كيان حقيقي واقعي.

□ الأحكام الشرعية التي نستفيدها في صياغة النظرية الاجتماعية ليست أطروحات فلسفية مجردة عن معانيها التطبيقية، بل هي علاجات حقيقية للمشاكل الاجتماعية التي نجدتها في كل عصر.

يجب أن تتوافر قبل أن تقطع يد السارق، كنصاب القطع، وكون المسروق في حرز تودع فيه الأموال عادة وارتفاع الشبهة ونحوها. والنظرية الفقهية في تلك العقوبة ينبغي أن تتناول قضية عدالة توزيع الثروة الاجتماعية، وتحليل طبيعة الانحرافات الاجتماعية، والإيمان بعدم انفكاك الأحكام الشرعية بعضها عن بعض. فعقوبة الحد هي عقوبة قصاص للجرم المرتكب وهو السرقة لا عقوبة انتقام. وبذلك فإن المعاقب لا يقاطع اجتماعياً، بل يدخل المجتمع فرداً قد غُسلت ذنوبه. وفي ذلك أمثلة تاريخية في عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث كان المحدود لسرقة يؤمن بعدالة الإمام عليه السلام لرأفته به. وفي ذلك رواية نعرضها هنا.

«عن الحارث بن حضيرة، قال: مررت بحبشي وهو يستقي بالمدينة فإذا هو أقطع، فقلت له: من قطعك؟ قال: قطعني خير الناس. إنا أخذنا في سرقة ونحن ثمانية نفر فذهب بنا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فأقررنا بالسرقة، فقال لنا: تعرفون أنها حرام؟ فقلنا: نعم. فأمر بنا فقطعت أصابعنا من الراحة وخلت الإبهام. ثم أمر بنا فحبسنا في بيت يطعمنا فيه السمن والعسل حتى برئت أيدينا. ثم أمر بنا فأخرجنا وكسانا فأحسن كسوتنا، ثم قال لنا: إن تتوبوا وتصلحوا فهو خير لكم يلحقكم الله بأيديكم في الجنة. وإلا تفعلوا يلحقكم الله بأيديكم في النار»^(١٠).

ومن تلك النظرية الفقهية في العقوبة نستخرج القوانين العملية الخاصة بالحدود وطريقة تطبيقها.

ومن الطبيعي فإن الأصل في الرسالة القانونية للحوزة العلمية، هو التلازم المحكم بين القانون والعدالة. فما لم يكن القانون عادلاً فهو ليس شرعياً. فالعدالة أصل من أصول الشريعة. وتفسير العدالة وتنظيم مصاديقها يرجع إلى الفقيه عند غياب المعصوم عليه السلام. وهذا الفهم الشرعي للقانون يرفع رتبة القانون من الرتبة الوضعية المفترضة إلى الرتبة الأخلاقية. وبتعبير آخر أن القانون إذا كان أخلاقياً، فإن حلّ الخصومات والصراعات بين الأفراد سيكون أقرب إلى العدالة القضائية، لأن الأحكام الأخلاقية تطاع من قبل الأفراد في مجتمع ديني أكثر مما تطاع الأعراف والتقاليد.

إن القانون الشرعي يستمدّ شرعيته من الدين السماوي الذي أنزله الله سبحانه للبشرية. فهو يعبر بأمانة عن رحمة الخالق عز وجل بالمخلوق، وعن حكمة الخالق عز وجل لتنظيم شؤون البشر. ومن أجل أن تطبق الشريعة في دولة دينية، فلا بد من ترجمة الأحكام الشرعية إلى قوانين يفهمها الناس في الحقوق والواجبات، والثواب والعقاب. ولا بد من طرح نظريات شرعية في الملكية، والعقود، والضمان، مع مراعاة التغير

□ إن الأصل في الرسالة القانونية للحوزة العلمية، هو التلازم المحكم بين القانون والعدالة.

□ فالحوزة محطة من محطات التنظير الشرعي والعقلي، ومحطة من محطات الإنتاج الفكري للأمة والعالم.

□ إن رسالة الحوزة العلمية للعالم، هي أن القانون الشرعي ليس مجموعة من المبادئ والأحكام، بل هو تشريع لسد حاجات الناس على مستوى العدالة القضائية، والحقوقية، والأخلاقية، بالإضافة إلى سد حاجات الناس الروحية والتعبدية.

تصحيح الخلل الذي أحدثته الجناية المرتكبة ضد الأفراد أو ضد النظام الاجتماعي، بقصد أو دون قصد.

إن رسالة الحوزة العلمية للعالم، هي أن القانون الشرعي ليس مجموعة من المبادئ والأحكام، بل هو تشريع لسد حاجات الناس على مستوى العدالة القضائية، والحقوقية، والأخلاقية، بالإضافة إلى سد حاجات الناس الروحية والتعبدية.

والشخصية العلمية للمجتهد خير تعبير عن أخلاقية القانون الشرعي. فالمقياس هنا هو العلم بالحكم الشرعي لمعالجة الموضوع. وإذا اعتبرنا الاستقلالية القضائية ظاهرة عقلائية، فإن استقلالية القانون الديني عن الأهواء والمصالح الشخصية، تجعله أكثر تميزاً عن الظواهر الاجتماعية الأخرى.

الاجتماعي والذهني للناس. فالحوزة محطة من محطات التنظير الشرعي والعقلي، ومحطة من محطات الإنتاج الفكري للأمم والعالم.

وإذا كان القانون العام يتعامل مع الواجبات والحقوق بشكل كلي، فإن القانون الجزائي يتعامل بشكل خاص مع الضرر والعقوبة. فالذي يُنزل ضرراً بالآخرين من قتل أو جرح أو سرقة أو جنحة أخلاقية لا بد أن يعاقب عقوبة جزائية رادعة تقتض منه وتردع الآخرين عن ارتكاب أمثال تلك الجنايات في المستقبل.

فالعقوبة تُفرض بقوة القانون الشرعي، على المخالفين الذين ارتكبوا انحرافات اجتماعية وأنزلوا أضراراً بالآخرين. وعندها، تضحى العقوبة شكلاً من أشكال

الهوامش

- (١) سورة التوبة، الآية ١٢٢.
- (٢) الغيبة، للشيخ الطوسي، ص ١٧٧.
- (٣) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢١٠.
- (٤) سورة الإسراء، الآية ٧٠.
- (٥) قريب من ذلك. «نهج البلاغة»، شرح ابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٥٧.
- (٦) سورة الحشر، الآية ٩.
- (٧) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.
- (٨) سورة الحج، الآية ٤٦.
- (٩) سورة النساء، الآية ٢٩.
- (١٠) الكافي، ج ٧، ص ٢٦٤. والرواية من حيث السند غير تامة لأن الحارث بن حضير مجهول. ولكن المجهولية غير الضعف. فلا يمكن الحكم بضعفها. وعلى أي حال فلا يمكن نفي صحة الرواية ولا يمكن إثبات صحتها. فالرواية مؤيدة فقط ولا تستدل بها.